جدلية القريب والبعيد في شعر العباس بن الأحنف

المدرس المساعد

حنان بندر علي

جامعة ذي قار - كلية التربية للعلوم الإنسانية

جدلية القريب والبعيد في شعر العباس بن الأحنف

المدرس المساعد

حنان بندر علي

جامعة ذي قار - كلية التربية للعلوم الإنسانية

ملخص البحث :

جدلية القريب والبعيد هي جدلية ضديّة ناتجة عن ائتلاف ثنائية (القريب والبعيد) ، مما يسهم في خلق إطار صراعي للعلاقة بين الطرفين ، ولهذه الجدليّة حضور واضح في شعر العباس بن الأحنف ، أسهمت بخلق حركة صراعيّة وفق جملة من العلاقات التركيبية المتعارضة القوى في تشكّلات المكون العاطفي العذريّ ، إذ تمثّلت بقرب الذات من الحبيب والبعد عنه ضمن دائرة القرب والبعد المكاني والروحي ، مما أطّرَ الشعور العاطفي بمضامين فكرية تستشرف رؤىً ومقاربات فلسفية عمقت البنية الفنية والجمالية للنص.

وتتموقع جدلية القريب والبعيد في شعر العباس بن الأحنف في محورين :

أ. **الجدليّة الصراعيّة** وتمثّل مساراً تعاكسياً ضمن علاقة صراعيّة محتدمة بين القريب والبعيد، فيبدو القريب بعيداً والبعيد قريباً وفق مجريات خاضعة لمؤثرات مختلفة لعل أبرزها :

التسلّط الرقابيّ وهو نوع من تسلّط القيم الاجتماعية المفروضة بشكل يحمل إلى فكر الشاعر العذريّ جملة من التداعيات الصراعيّة تجعله عرضة لتصارع صورتين : صورة ظاهرية مثقلة بمدلولات البعد ظاهرياً ، وصورة باطنية مثقلة بمدلولات عمق العاطفة من الشوق والقرب الروحي . ويبدو **الحضور المطلق** من عوامل الجدليّة الصراعيّة فإنْ غاب الحبيب عن مكانياً فهو حاضر حضوراً مطلقاً ضمن تجليات اللاوعي انطلاقاً من يقينية العاشق بالانتماء الأزلي المتجذّر للذات في الآخر . وقد تنتج هذه الجدليّة من البحث عن وسائل **التوافق النفسي** فيعمل العاشق في ظلّ التأزّم العاطفيّ على إيجاد علاقات بين القريب والبعيد في إطار من التأمّلات والنزعات المضطربة قد تصدق وقد تعطي طروحات مغلوطة بزيادة التأزّم .

ب. **الجدليّة التكاملية** ويتساوى فيها القريب والبعيد في وحدة وظيفية متبادلة ينحسر فيها البعد التصارعيّ وتأخذ السياقات النديّة بمبدأ التكامل ، وهو غالباً ما يجسّد لحظة الاستسلام لأزمة الواقع العاطفي .

إنَّ القريب والبعيد طرفان متعاكسان متغايران قد يأتلفا منطقياً في وحدة جدلية ؛ ليتصارعا ضمن إطار (الثنائية الضديّة) ، مما يسهم في خلق مكون (إبداعي جمالي / فكري نفسي) في قصائد العباس بن الأحنف العذريّة ، فتمثّلت هذه الجدليّة في أكثر تجلّياتها في قرب الذات ــ التي تسعى جاهدة لبلوغ أقصى مشارف الحب ــ من الآخر (الحبيب) ، والبعد عنه ضمن دائرة القرب و البعد المكانيّ والروحيّ ، وفق رؤية ازدواجية متفرّدة مستأصلة من روح العاطفة العذريّة .

فالجدليّة الضديّة بوصفها فكرة فلسفية تقوم " على فكرة أنَّ ثمَّة قدرة على الربط بين الظواهر التي يبدو أنَّها منفصلة " [١] .

وقد أخذت ثنائية (القريب والبعيد) حيزاً واضحاً في شعر العباس بن الأحنف ، أضفت على النص الشعري صفة الجدل والصراع ، فبالجمع بين هاتين الظاهرتين المنفصلتين المتناقضتين خرج لنا النص بتوليفة فلسفية مُغذاة بروح الجدل والتصارع ، ذلك أنَّ من طبيعة الجدل اعتماد الفكر على الأضداد في نشاطه[٢] ، كما أنَّ الجدل كمفهوم فلسفي يعني التعاكس والتضاد ، وهو أساس الصراع والتفاعل بين الموجودات.

فهذه الجدليّة (القريب و البعيد) بتحركها المتعاكس داخل البنية النصية أسهمت بخلق حركة صراعيّة ضديّة فيها ، فكلُّ ظاهرة تشتمل على طرفي تضاد من المحتَّم أن يتولَّد الصراع بينها .

كما أنَّ لظاهرة الجدليّة الضديّة وظائفَ دلالية وجمالية متعددة تفرض على الشاعر أن يتعامل معها بوعي عالٍ وبرؤى معمقة وحساسية مرهفة ، ولعلَّ من أبرز هذه الوظائف" تعميق البنى الدرامية للنص من خلال إثارة الوهج الصراعيّ بين المتناقضات ، ثم تعميق البنية الفكريّة للنص من خلال حركية الجدل الصراعيّ بين الثنائيات المتضادة ، أمّا الوظيفة الجمالية فتتجسد بإثارة الدهشة والمفارقة المتولِّدة من اجتماع النقيضين في بيت شعري واحد ، وكذلك في قصيدة واحدة " [٣].

فضلاً عن ذلك تعمل الثنائية الضديّة أو الجدليّة الضديّة على تعميق المعنى والبنية التركيبية للنص ، فهي تخلق في نفس المتلقي نظرة رؤيوية عميقة المعنى والدلالة [٤] .

ولعلَّ هذا ما أراده العباس بن الأحنف لنصه الشعري الغزلي بما وظّفه من جدلية (القريب و البعيد) التي جعلت من النص الغزلي ــ بما تحمله من وظائف ــ فضاءً فكرياً رحباً ومطلباً جمالياً يرضي طموحات القارئ المختلف بتفجير أكثر تجليات القراءة ، وهذه الجدليّة بتصارعها الحاد المضطرب تبدو نتيجة فعلية لتجربة الحبّ الحقيقي؛ ذلك أن الحبّ الحقيقي داعية لأنْ يبعث في نفس المحبّ ظواهر نفسية سلوكية تنزع إلى ضرب من التفلسف على مستويات وأشكال مختلفة ، " فكلُّ حبٍّ حقيقي يسوق صاحبه إلى حالة فلسفية أو إلى شيء منها على أقل الاحتمالات " [٥] ، فالعباس بن الأحنف اختار لعشقه سبيلاً فلسفياً في جدلية (القريب و البعيد) بما تحمله من دلالات صراعيّة بدت معها حالة فلسفية نفسية عملت على تمركز الجدل في ثنايا النص الروحي ــ إن صحَّ مثل هذا التعبير ــ فما هذه العلاقة المتجادلة في الواقع إلا مظهر من مظاهر تصارع المشاعر .

ولعلَّ هذا السبيل الفلسفي نتيجة حتمية للنص العذريّ الذي يحمل وجهاً عشقياً شديداً بفعل لغته القائمة على ظاهرة التضاد ، فألفاظ الغزل العذريّ ما بين باطنها وظاهرها تحمل دلالات متعاكسة من الرفض والقبول والتمرّد [٦] .

وقد بدا العباس بن الأحنف في تعامله مع جدلية (القريب و البعيد) حريصاً على تصوير تجاربه العاطفية ، فرسم بذلك جملة من العلاقات التركيبية والمنعطفات التعارضية وفق محورين رئيسين :

١. المحور الأول : محور الجدليّة الصراعيّة ، إذ تأخذ جدليـة (القريب و البعيد) مساراً تعاكسياً ضمن علاقة صراعيّة محتدمة فيبدو القريب بعيداً ، والبعيد قريباً في ظلِّ مسببات وحيثيات مختلفة.

٢. المحور الآخر: محور الجدليّة التكاملية ، إذ يتماهى الضدّ في ضدّه ، فيشكّلان وحدة جدلية متبادلة يتساوى فيها القريب و البعيد ، فيؤديان النتيجة ذاتها ضمن ما يمكن أن نسميه بـ (فلسفة الدمج) .

١ـ الجدليّة الصراعيّة :

تبدو هذه الجدليّة الأكثر حضوراً ، إذ حرص العباس بن الأحنف على توظيفها توظيفاً عمل على تأطير الشعور العاطفي بمضامين فكرية ؛ بما تحمله من آليات متباينة ومتعارضة ، ومن المؤكد أنَّ هذه الجدليّة تتموقع ضمن مجريات خاضعة لمؤثرات مختلفة ، أبرزها:

أ ـ التسلّط الرقابيّ :

وهو نوع من تسلّط القيم الاجتماعية المفروضة سواء أكانت أخلاقية أم من صنع العادات والتقاليد تجعل العذريّ ـ طوعية أو قسراً ـ يقبل المنزلة التي يفرضها الوضع الاجتماعي ، فالرقابة قيمة اجتماعية تطرح فكرة الصراع الاجتماعي والنفسي الذي هو حالة من التصادم أو التوتر [٧] .

وهذه الحالة من التصادم حملت إلى خيال وفكر الشاعر العذريّ جملة من التداعيات التصادمية الصراعيّة كما نلاحظ ذلك في شعر العباس بن الأحنف ، إذ إنَّ سلطة الرقيب تمسك في كثير من الأحايين بمناحي العاطفة العذريّة فتتحكم بجدلية (القريب و البعيد) ، فتجعل القريب بعيداً بتأثير البعد الاجتماعي ، في حين يعمل البعد النفسي على جعل البعيد قريباً مما ينشأ حالة من التصارع والتوتر ، فهذه السلطة تحمل على عاتقها خلق البعد تحت مسببات مختلفة لتهشيم الاقتراب ، فالرقيب هو بمثابة قتل للاستقرار النفسي العاطفي .

ومن أمثلة هذه الجدليّة قول العباس بن الأحنف :

كفى حزناً أني أرى من أحبُّهُ قريباً ولا أشكو إليه فيعلمُ

فإن بحتُ نالتني عيونٌ كثيرةٌ وأضعف عن كتمانهِ حين أكتُمُ [٨]

فالمحب في وضع تمزق نفسي تحت حالة يعيشها بفعل الرقيب الذي قويت سلطته كون محبوبة العباس بن الأحنف من نساء القصر ، فتتجسد في شخص الرقيب عمق المعاناة العاطفية بل مجملها ، فلو أُحصي كل ما يحمله الحبّ من مآسٍ ومحن ليكفي أن يخضع لسلطة الرقيب الذي يعمل على تأصيل المعاناة ، فيحيل الحب إلى شعور محتاط ، وكلما قوي الرقيب في استيضاح آلياته ومقصديته (البعد) وافقهُ الحبيب قسراً بالبعد أو الهجر المصطنع ــ كما اسماه ابن حزم ــ وما هذه الحالة إلا اختلال للتوازن العاطفي النفسي ، وخلق ازدواجية في الفعل ورد الفعل وفق آلية التظاهر في حال يرى المحبّ حبيبه قريباً ويتظاهر ببعده ، فنرى الحبيب " محترفاً عن محبِّهِ مقبلاً بالحديث على غيره ... وناظراً في جهةٍ نفسه في غيرها " [٩] ، وهذا الوضع كلُّه ينتهي بالمحبِّ إلى حالة من الحزن الشديد .

غير أنَّ هذا الحزن المتناهي الذي ينتاب العاشق في حال يرى الحبيب قريباً ويتظاهر ببعده تجنباً لعيون الرقابة قد وجد له سبيلاً تعويضياً في أنَّ القرب الروحيّ الذي يسمو على التسلّط الرقابيّ لم يزل موجوداً

وأقسمُ لو أبصرتنا حين نلتقي ونحن سكوتٌ خلتنا نتكلّمُ

ترى أعيناً تُبدي سرائرَ أنفسٍ مراضٍ ودمعاً بعد ذلك يُسجَمُ (١٠)

فسلطوية الرقابة التي حرصت على أن تمنع الخطاب المباشر لم تتمكن من فـرض سيطرتها على الخطاب غير المباشر (خطاب الروح) الذي صدر عن طريق العين ، ففي هذا النص إثراء واضح للقدرة البصرية على التعبير عند دخولها حيز المنظومة الخطابية ، فقد عملت تقنيات العين البصرية وتأثيراتها النفسية على تقولب الخطاب ضمن مفاهيم تجريدية ، وبذلك أخذت العين دوراً محورياً بين الحسيّ والمجرد ، فبدت الفاعلية البصرية المجردة (الخطاب) أكثر إيحائية من الفاعلية الحسية (البصر) التي انحالت إلى فاعلية متحفِّظة بفعل الرقيب وبذلك أخذت العين وظيفة إضافية بدت تحت سلطوية الرقيب أكثر فاعلية من الوظيفة الأصلية ، فحملت على عاتقها وظيفة تأسيس وتحرير نسق خطابي له خصوصية تميّزه عن غيره تكمن في كونه خطاباً روحياً.

فهذا الوضع من تجاوز الرقيب بتأثير قوة الحبِّ ورصانته سمح للعين أن تخاطب بلغة فنتازية تنأى عن الألفاظ والعبارات التي يقوم بها جهاز النطق وفق التركيب البيولوجي ، فهي تخاطب خطاب سرائر الأنفس المراض، وما هذا الخطاب إلا نزعات نفسية مكبوتة حملت جملة من التفاصيل الموحية ، ويبدو أنَّ هذا الخطاب متجذِّر في الذات الإنسانية وربَّما يعجز اللسان عن أن يفصح عنه في بعض الأحيان ، ومع هذا الوضع تبدو قدرة العين في التعبير عن المقصدية العاطفية أقوى وأقدر من قدرة اللسان الذي يبقى رهينة الرقيب المتسلِّط .

فالعين عملت على الإفصاح عن أحلام الذات الحبيسة ومكبوتاتها ، وفي الوقت ذاته يعمل الشاعر على إشراك متلقيه ويحاول إقناعه بأن يسمع ذلك الكلام (خلتنا نتكلَّم) ، فالعين أفصحت عن سرائر الأنفس وللمتلقي أن يسمع ذلك الكلام مع حقيقة يحاول الشاعر إثباتها في (نحن سكوت) ، وكأنه يحاول أن يعرض لمتلقيه الوضع الذي عاشه في تلك اللحظة بين تسلّط الرقيب والحاجة إلى الإفصاح عن دواخل الأنفس ، وكيف أنَّ العين بدت النافذة الوحيدة والجريئة التي تصدَّت للرقيب ، وبالنتيجة أصبح العاشق بين حالتين : حالة التصارع مع الرقيب ، وحالة الإئتناس الروحيّ والتماهي مع الحبيب .

فللحبِّ مملكة خاصة وصيرورة منفردة يسلب الوظائف من أصلها إلى أصل آخر بعيد عن أساسها ، فالعين تتكلم والأذن تسمع اللاكلام والمتلقي يتخيَّل ذلك اللاكلام مع إدراكه للسكوت .

وفي كلِّ هذا تأكيد على أنَّ سلطوية الحبّ تفوق سلطوية الرقيب بأنواعه وإمكاناته المتعددة ، فسلطة الحبِّ ترسم سيناريوهات خيالية مستقاة من التصارع بين القوى المتضادة : (الحبيب / الرقيب ،

القرب / البعد ، الكلام / السكوت) ، وبذلك بدت التشكّلات العاطفية في هذا النص تتحكم فيها قيم واقعية يداخلها شئ من التعارضات المتخيَّلة ، ولعلَّهُ هنا تكمن حدة التناقض والتعارض والبحث عن حالة من التوازن بين الأطراف المتنازعة ضمن عالم متماهٍ في الروحية المطلقة ، وتحت هيمنة العامل الأكثر حضوراً (الحب) ، وفق المرتسم الآتي :

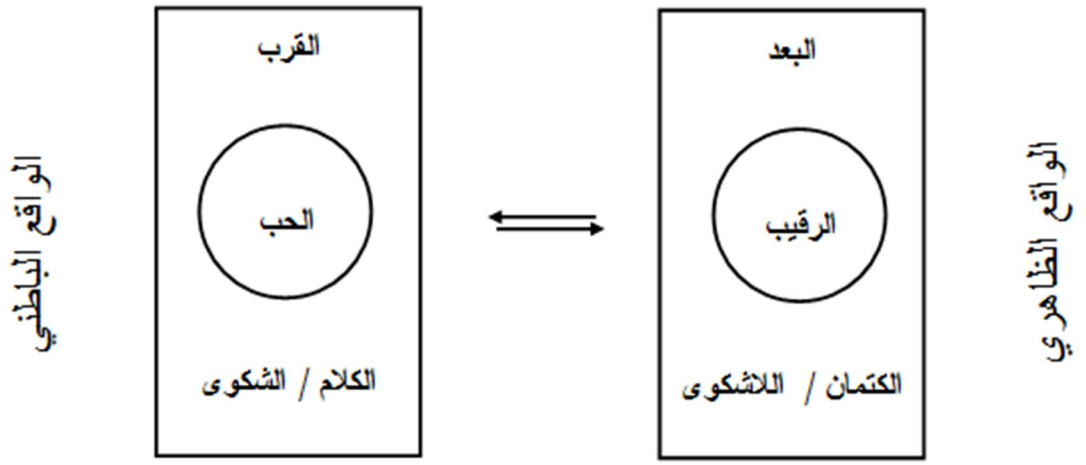

وقد تصل هيمنة التسلّط الرقابيّ إلى مدى أبعد من منع الخطاب المباشر الذي استعاض عنه العاشق بالتخاطب عبر الإرساليات البصرية ، وإنَّما قد تتسع إمكانية هذا التسلّط بأن تمنع المرور قرب دار الحبيبة :

إنْ يمنعوني مَمَرّي قُربَ دارِهمُ فسوف أنظرُ من بعدٍ إلى الدارِ (١١)

فمركزية التصارع في هذا النص بيد الرقابة التي تعمل على زعزعة ضوابط الأقيسة العاطفية عندما تمنع النفس المشحونة بالثراء العاطفي من أن تمّر قرب دار الحبيب ، فتصل نوازع التسلط إلى خلق المناورة بفرض خصوصية مكانية ، مما يقف بالضد من الاستعداد الذاتي العاطفي لدى العاشق الذي يبحث عن وسائل لكسر الأنظمة السلطوية ، وبلوغ حالة من التكيّف أو التوازن النفسي ، ولّما كان الحبّ الذي ينشد التواصل لا يعترف بالمسافات المكانية ، فقد بدا النظر من بعد إلى ديار الحبيب وسيلة إستبدالية للعاشق في التنفيس عن معاناته وبلورة شعوره المخبوء في مضمر وجدانه ، ومحاولة التغلّب على العذاب النفسي الذي ولّدهُ البعد والمنع ، وهذه عودة لتفعيل القدرة البصرية باستدعاء لوازم اللقاء بالنظر عن بعد إلى الدار الذي تعلل به النفس ، وهنا تتجلى معطيات رؤية خاصة لدى الشاعر فإن امتنع الاقتراب ــ وإن كان اقترابا محتاطاً (المرور قرب الدار) وليس لقاء حقيقياً ــ استبدله بالنظر عن البعد ، ولعلَّ أبرز دواعي هذا الاستبدال الذي يرجع إلى ثوابت لاشعورية انبعثت من محدودية الطموح فهو لم يطمح بأكثر من المرور قرب الدار ، فلمّا امتنع عليه ذلك استعاض عنه بالنظر من بعد إلى الدار وهو طموح محدود أيضاً ، ونتيجة كلا الطموحين كانت لقاء شعورياً ، وبدا العاشق في الحالتين في وضع شـــعور متوحّد تمثّل بمبدأ

(القناعة بالقليل) ، وهنا يبدو انزياح الطموح من القرب إلى البعد تحت طائلة الشعور المتوحِّد باللقاء وليس اللقاء الحقيقيّ ، ومن ثمَّ يتغلب الحبّ على الرقيب مرة أخرى بما يحمل العاشق من إمكانية عاطفية أتاحت له تذليل العقبات للوصول إلى حالة من القناعة والتشكّلات التوافقية ، وبما تمتاز به الذات من سمات وظيفية مثقلة بمعطيات عاطفية تتوق إلى الرقيّ إلى مستوى الحبّ الحقيقيّ الذي يكون في حلٍّ من الإمكانات السلطوية والروابط المكانية .

وقد يكون (البعد / الهجر) متعمداً للإشعار بالسلو لغرض التكتم على علاقة الحب ّ كقول العباس بن الأحنف :

وأهجرُ عمداً كي يقال لقد سلا ! ولستُ بسالٍ عن هواكِ إلى الحشرِ
ولكن إذا كان المحبُّ على الذي يُحــبُّ شــفيقاً غافــلَ النـــاس
وأهجرُ عمداً كي يقال لقد سلا !

فيبدو الهجر سلوكاً استبدالياً يعمل على إيهام الواقع استجابة لمقتضيات الكتمان ، ذلك أن كتمان علاقة الحبّ يعمل على اشتغالات متعددة يبدو أنَّ أبرزها اصطناع البعد وتعّمد الهجر ، وبذا يحمل البعد انزياحاً عن السياقات الشعورية الحقيقية بما يحمل من مقاربات تظاهرية ورؤىً متعمَّدة .

فالبعد يستبطن منعطفاً من التبدّلات الازدواجية تتراوح فيه روابط التواصل ما بين النسق الظاهر: وهو المسار الذي تتولد عنه تجلّيات الهجر والسلو ، والنسق المضمر: وهو المسار الذي يحمل تمحوراً للعاطفة في المدركات الباطنية الروحية دون الحسية .

ويبدو البعد في هذا النص قيمة سلوكية متعمَّدة تقوّضها العاطفة جلباً للسلو الذي يعمل بدوره عمل وسيلةٍ دفاعية بما يحمل من مدلولات الإيهام والاستغفال تمجيداً لعاطفة الحبِّ ، فبتعمّد الهجر اختزال جملة من المشاعر والعوامل الترابطية والمستويات النفسية في سياق من التظاهر الناتج عن وعي العاشق بضرورة التكتّم على علاقة الحبِّ من أعين الرقابة مادام العاشق شفيقاً على معشوقه .

ومثل هذا النص بما يحمل من تحوّلات الواقع نجد نصاً آخر للعباس بن الأحنف ، يستقطب فيه آلية الهجر والتباعد والتستّر لمصانعة الرقابة التي بدت العدو الكاشح والخطر الأكبر الذي يدقّ ناقوسه خلف أستار عاطفة الحب :

الله يعلمُ ما أردتُ بهجرِكم إلاّ مصانعةَ العدوِّ الكاشحِ
وعلمتُ أن تباعدي وتستري أوفى لوصلكِ من دنوٍّ فاضحِ (١٣)

ففي كلا النصين يبدو الصراع الجدليّ بين عوالم النسق الظاهريّ وعوالم النسق المضمر بما يحملان من تجليات وتعارضات متشابكة ، وفق الترسيمة الآتية :

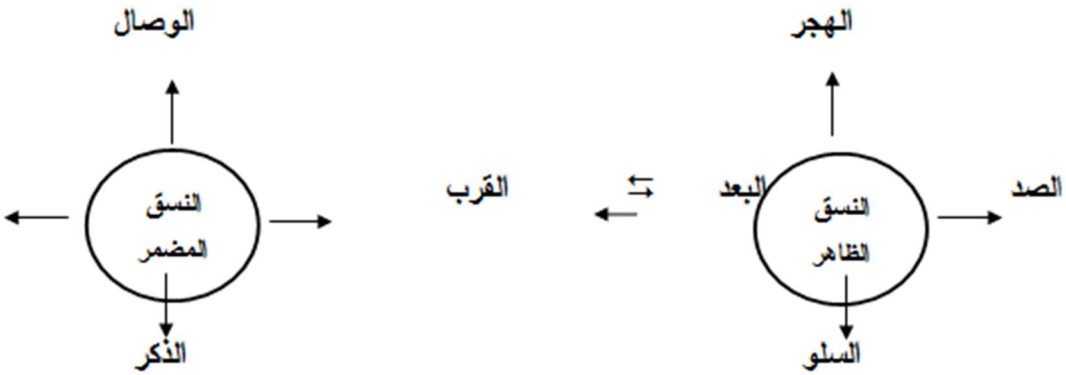

ومثل هذا يبرز لنا البيت الشعري حاملا للمعنى ذاته في اتخاذ البعد وسيلة لتمويه الرقيب والتكتم على علاقة الحبِّ :

كتمتُ الهوى وهجرتُ الحبيبا وأضمرتُ في القلبِ شوقاً عجيبا(١٤)

فالعاشق يجترح الهجر ظاهراً بفعل هيمنة هاجس الرقابة ، ويبقى باطنه أكثر تمسّكاً بثوابت التجربة العاطفية ، بعد أن علم أنَّ التباعد أوفى للحبيب من القرب والوصال ، وبذلك تحمل ذات العاشق صورتين :

صورة ظاهرية : وهي صورة الكتمان والهجر وتكون معها النفس مثقلة بمدلولات البعد بدافع الكتمان ظاهرياً .

والصورة الأخرى صورة باطنية : وتكون معها النفس مثقلة بمدلولات عمق العاطفة من الشوق والهيام والقرب الروحي .

ب - الحضور المطلق :

ويقصد به قناعة العاشق بحضور الحبيب حضوراً مطلقاً ضمن تجلّيات منظومة اللاوعي التي تتجاوز الرؤية الواقعية بإسقاط القناعات على الخيال انطلاقاً من يقينية العاشق بالانتماء الأزلي المتجذر للآخر (الحبيب) في الذات العاشقة ، فيبدو الحبيب في حالة حضور مطلق ضمن ما يصوغه العاشق من عوالم حالمة ، كقول ابن الاحنف :

أما والذي لو شاءَ لم يخلق النوى **لئن غبتَ عن عيني لما غبتَ عن قلبي**

يوهِّمنِيكَ الشوقُ حتى كأنّما أناجيكَ عن قربٍ وإن لم تكن قربي (١٥)

فالعاشق بما يحمله من نفس مشحونة بالثراء العاطفي يعمل على تجسيد شخص الحبيب ضمن عالم مطلق في حلٍّ من الامتدادات المكانية المقيِّدة ، فإن غاب الحبيب عن العين (عالم الواقع) بما يحمله من

قيود ، لم يغب عن القلب (عالم الحلم) ، فهو موجود في اللاوعي يراه ويسمعه ويخاطبه ، ولعلَّ هذه الوسيلة بما تحمله من حياة متخيلة موافقة للمعنى النفسي الكامن في ذات العاشق هي الوسيلة التي يتحرر بها العاشق من واقع (الغياب والابتعاد) وقيوده القاسية وفرضياته المريرة التي تسعى إلى الحيلولة دون اللقاء والاقتراب ، وبهذا يكون للشوق سلطان على الذات العاشقة تتحول معه النزعات النفسية المضطربة إلى صنائع عاطفية تعمل على نفي الواقع فينحال البعد الحقيقيّ إلى اقتراب روحيّ .

ولعلَّ هذا الاقتراب والحضور المطلق ما هو إلا نتيجة حتمية للاتصال الروحيّ الذي ولَّده الحبّ ، ذلك أنَّ الحبَّ هو الذي " يجعل (الأنا) في اتصال مع الذات الأخرى مع (أنا) أخرى يمكن أن تنعكس فيها انعكاسا صادقاً " (١٦) .

فالحبُّ وحده الذي يحقق الاندماج الروحيّ والتمازج النفسيّ ضمن وجود أكثر عمقاً وأشد أصالة .

ولعلَّ هذا العالم الحالم الذي يسكن أعماق العاشق قد يذهب إلى أبعد من رسم خيال أو شخص الحبيب في المخيّلة ، وإنَّما قد يجرد من عالمه الواهم حالة من الهيام في مديات تجعل المستحيل ممكناً ، فعندما يشتدُّ الشوق بما لا يستطيع الواقع مواجهته يبرز الوهم أو الخيال كوسيلة تعويضية تجسد مناجاة العاشق لحبيبه وكأنَّه قربه مناجاة روحية حاملة لدلالات الاقتراب الشديد التي تقع خارج حدود الواقع المتوغل في الابتعاد ، بدليل شدة الشوق المائلة في ثنايا النص المنبعثة من عمق المعاناة الكامنة في ذات العاشق ، ولعلَّ في (وإن لم تكن قربي) إدراكاً بحقيقية البعد الواقعي ، فهو يحلم باللقاء كوسيلة أو ردَّة فعل اتجاه الواقع ، وبذلك يقوم الخيال بوظيفة تعويضية يُحَقّقُ التطهير من خلالها ، مما يجعل منها آلية دفاعيّة جبّارة (١٧) .

وهذا المرتسم يوضح الصراع الجدليّ بين (القرب / البعد) و (الواقع / الحلم) :

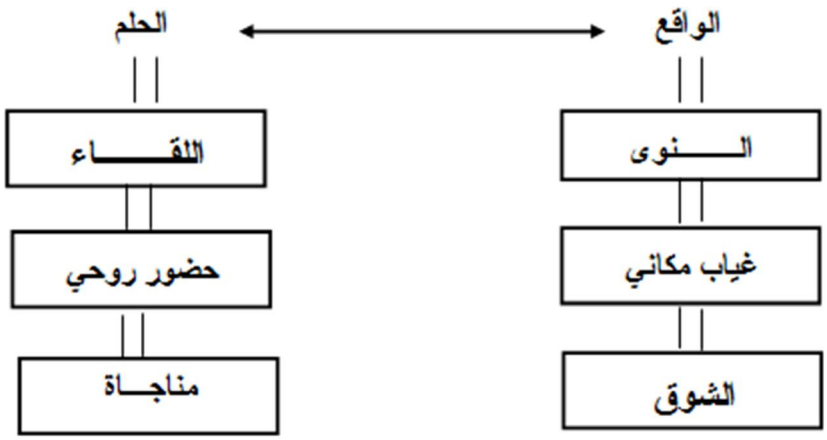

فالنوى هو ما دفع بالعاشق لأنْ يتحرَّر من الواقع الذي يحدّ من انفعالاته ويكبتها ليسبح في فضاء الخيال الذي يصوغه كيف يشاء ، فأوّل تنفيس عن كبت الواقع هو مناجاة الحبيب عن قرب ، وبهذا التصارع بين (القريب / البعيد) و (الواقع / الحلم) صورة للتمرّد والرفض بما يمتاز به الحبيب من حضور مطلق .

فالشوق يعيد الروابط الشعورية بين المتباعدين مكانياً ويشعر بوجودهما المطلق ، كما في البيت :

نزوركم لا نكافيكم بجفوتكـــم إنّ المحبَّ إذا لـم يُستزر زارا

يستقربُ الدارَ شوقاً وهي نازحةٌ من عالجَ الشوق لم يستبعد الدارا

جاء البعد في هذا النص بمعطيات عاطفية توليدية تمثّلت بالشوق ، والذي عمل بدوره على تقويض الشعور بالبعد بوصفه قدرة مطلقة تسعى لاضمحلال آليات البعد المكانيّ ؛ لتتجلى تمظهرات الاقتراب الروحيّ المطلق وفق آلية تصارعية .

ذلك أنَّ الشوق عبارة عن نوازع نفسية مخبوءة انطلقت لمواجهة البعد المكانيّ (نزوح الدار) الذي عمل على إيقاضها ، ثم يتحوَّل الشوق إلى قوىً تتحرك في إطار مواجهة المسبب (نزوح الدار) وذلك بتقويض مساحة البعد المكانيّ بما يجلب القرب الروحيّ .

فالشاعر في هذا النص سعى إلى عدم تكوين انطباع سلبي لعلاقته العاطفية بمجرد نزوح الدار وذلك بتثبيت لحظة الحضور المطلق عن طريق تدعيم أواصر منظومة التواصل الروحيّ وتوشيج دواعيها بالشوق الذي عمل كمحرك للصراع بين القريب والبعيد ، فبعد أن استوعب الوجود المكاني دلالات البعد لم يسمح الشوق لنزوح الدار من تطبيق مفاهيم البعد روحياً ؛ لأنَّ الشوق هو العامل الذي يستحضر الحبيب حضوراً مطلقاً بالخروج من الصيرورة المكانية .

وقد يعمل الودُّ عمل الشوق في تجاوز البعد المكانيّ والزمانيّ كما في البيت :

أغيبُ عنك بودٍّ لا يغيّرهُ نأيُ المحلِّ ولا صرفٌ من الزمنِ (١٩)

فالودُّ الذي يعتمل في أعماق الشاعر منح الحبَّ امتدادات مكانية وزمانية ذات رؤىً متسعة تتحدى تغييرات المكان وصروف الزمان الواقعية ، فهذا الودّ في حلٍّ من القيود الزمكانية التي يحملها الواقع ، فهو مطلق سابح في أغوار الذات ، ومهما غابت مديات الذات عن ذاتها الأخرى (أناها الأخرى) فهي موجودة وكائنة في حيوات فريدة وجوهرية منحها لها الودّ الصادق الذي يسكن أعماقها ، فالودّ هو الذي يرسخ ركائز التجربة العاطفية ويشظي بواعث الغياب (البعد) ليحيلها إلى روابط متينة من الحضور (القرب) ، كما يوضح المرتسم :

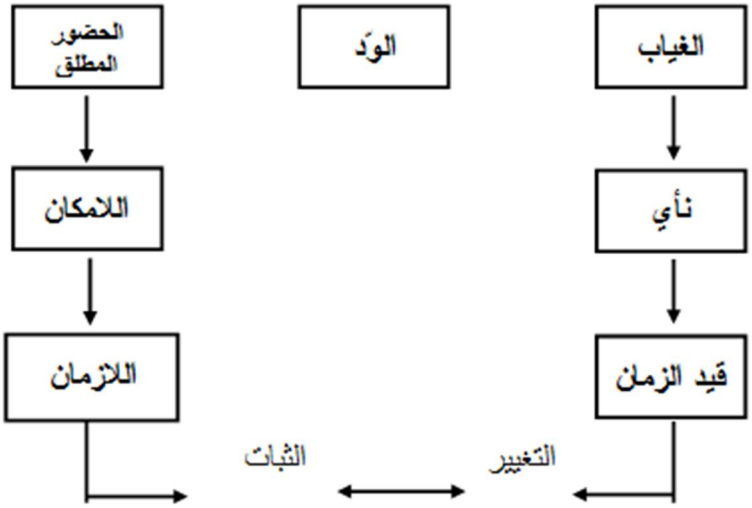

فالبعد يبعث التصارع بين الوجود واللاوجود والمكان واللامكان وبين الزمان واللازمان ، فإن أقترن (البعد / الغياب) بالودّ انحالت نتيجة التصارع إلى اقتراب وحضور متحرر من الغياب بالخروج من صيرورة المكان والزمان ، فبالودّ ينأى البعد عن الروح التي تظلّ مرابضة في أفق الحبيب متحدية تمظهرات التغيير المكانية والزمانية .

فكلا الشوق والودّ عبارة عن قيمة شعورية تسمح بتشخيص معالم من التواجد لتأصيل الحضور المطلق .

وقد ينبع الحضور المطلق من الشعور باستمرارية الحبّ الذي تذوب معه المتناقضات ، كما في :

تحبّ فإنّ الحبّ داعيةٌ الحبّ وكم من بعيدِ الدارِ مستوجبِ القربِ(٢٠)

الحبُّ هو الغاية المنشودة التي بتحقيقها واستمرارها تفكُّ قيود الواقع المكانية والزمانية ، فتصل الذات إلى درجة الانصهار مع الآخر مما يجعلهما في ائتلاف وانسجام ، فكم من بعيد الدار(بعد مكاني) مستوجب القرب (قرب روحي) أُنجب من خلال تفاعل العواطف التي تنوء بمقدرات الحبّ الذي يطوي المسافات البعيدة ليحيلها إلى اقتراب مطلق ، وهنا يبرز العمق الدلالي لروح العاطفة ، فالحبُّ وبفعل التوظيف الجدليّ (القريب و البعيد) اكتسب رؤىً فكرية جعلت منه فضاءً لتعميق الصراع والتفاعل بين القوى المتضادة .

وبهذا أسهمت جدلية (القريب و البعيد) بخلق حركة ضديّة عملت إلى جوار يقينية العاشق بالحضور المطلق على تقريب الهوة بين المحبين والتحليق في فضاءات محدودة موضوعياً مطلقة روحياً كنوع من التنفيس عن أزمة الحبّ والحدّ من الإحباط وتشظّي لحظات الأمل ، حتى بلغ المحبان حالة من التمازج الروحيّ التي تقع بالضدّ من أفق التباين ، وهذا ما أرادهُ العباس بن الأحنف في قوله :

فإنّ خالقَنا للحبّ مبتدعاً لم يفرد الروحَ لمّا أفردَ الجسدا [٢١]

ج – التوافق النفسيّ :

يبدو أنَّ العاشق في بحث دائم عن وسائل التوافق النفسي والسلوكيات المتّزنة ، وفي ظلّ ظروف قاهرة من التأزّم العاطفيّ قد يبحث عن ضالته في وسائل أكثر تأزّماً مما هو عليه ، فيعمل على جمع مجموعة من الأضداد ويحاول إيجاد علاقات تركيبية بينها في إطار من التأمّلات والنزعات المضطربة ، كالجمع بين (القريب و البعيد) في قول العباس :

امّلتُ بالهجرانِ لي راحةً من جمراتٍ بين أحشائي

فازداد جهدي وبلائي بها أنا الذي استشفيتُ بالداءِ [٢٢]

فالعاشق يستدعي الهجر (البعد) للخلاص من جمرات القرب ، وهذا الاستدعاء الذي يحمل انزياحاً عن المعايير الطبيعية نابع من تأثير عذاب القرب الذي جرَّد العاشق من التحكيم العقلي ، فلمَّا لم تفلح الوسائل الإيجابية في حلّ صدامية التعذيب العاطفي نحى لاشعورياً نحو الوسائل السلبية طلباً للراحة ، فلم يجد أكثر سلبية من الهجر(البعد)، فهو يأمل البعد في لحظة سيطرة عذاب القرب باستدعاء لوازم الهجر .

وفي هذه التأمّلات الباطنية ميل للمأساة في لحظة تعطيل عقلي، ذلك أنَّ " قدرة العقل على التفاعل مع الوسط الخارجي تتناسب عكسياً مع درجة الحبّ التي تهيمن على روح الفرد ،فكلَّما تعمَّق العشق تعطَّل الذهن ، وكلَّما برئت منه الروح ، أمعن الوعي في الاستيقاظ " [٢٣].

فكلَّما قويت أزمة الحبّ اعتملت في لاوعي العاشق طروحات تأملية لبلوغ تسوية علاجية ، فما التأمّل إلّا تجليات لردّات فعل خاضعة لتأثيرات منبعثة من أزمة نفسية ، ومن بين هذه الطروحات استدعاء البعد بحثاً عن التماسك العاطفي عبر تأمل غير واعٍ ، كما يفصح النص .

كما نلحظ تصوّر تساوي النقيضين في هذا النص في نتيجتها فالبعد يأخذ نتيجة القرب (الراحة) ، والقرب يأخذ نتيجة البعد (العذاب) ، ومن المؤكد أنَّ هذا الاستبدال للنتائج المتناقضة في لحظة تأمل لاواعي متأتٍ من تأثير (شقاء الوعي) ، الناتج عن مثيرات وانفعالات متنوعة .

غير أنَّ هذه الصورة من الراحة التي تتموقع ضمن منظورات تأملية لما سيكون بدت أكثر تأزّماً من الصورة الواقعية ، فوفق آليات ومرتكزات الواقع بدا البعد (الهجر) حاملاً لمدلولات زيادة الجهد والبلاء بشكل فاق العذاب في ظلّ القرب ، فأراد أن يستشفي من جمرات القرب وتحت تأثير شدة الإيلام حمله التعطيل العقلي على الاستشفاء بما هو داء ، وبذلك أوقع العاشق نفسه أمام إشكالية التكيّف والتوافق النفسي بين التأمّل اللاعقلي والواقع ، عندما وجد الهجر داعية لتفجّر عمق الأزمة العاطفية ، وبهذا

وضع نفسه وهو يبحث عن التوافق بعد زوال إيهام الخيال أمام الحقيقة المضادة للأمل ، كما يوضح المخطط :

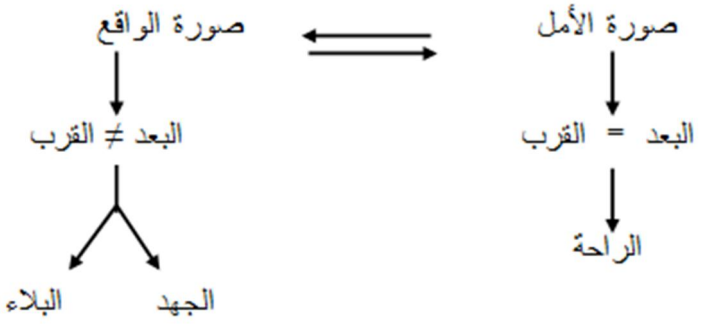

ومثل هذا النص القائم على تصارع القرب والبعد بحثاً عن التوافق والاستقرار النفسي :

أُجرِّبُ بالهجرانِ نفسي لعلّها تُفيقُ فيزدادُ الهوى حين أهجرُ

وأعلمُ أنّ النفسَ تكذبُ وعدَها إذا صدقَ الهجرانُ يوماً وتَغدِرُ(٢٤)

فهو ينشد البعد كمحور استبدالي للقرب علّه بذلك يصل إلى اكتناه التوازن العاطفي .

ومثلما تبيّن أنَّ الشاعر (العاشق) قد يطلب البعد لجلب السلو ظاهرياً بما يوهم الرقابة ، يمكن أن يستدعي البعد وتجنّب الحبيب طلباً للسلوِّ الذي يحقق له التوافق النفسي والشعور المتزن ، غير أنَّ هذا التصوّر وهذه المحاولات تبقى في الحقيقة مضادة للأمل حتى تضيق به وبأمانيه الأرض بما رحبت ، ولم يجد له سبيلاً ومذهباً سوى الحبيب :

تجنّبَ يرتادَ السلوَّ فلم يجد له عنكِ في الأرضِ الفسيحةِ مذهبا (٢٥)

وقد يتعرّض العاشق في بحثه عن التوافق والاستقرار النفسي إلى ضروب من الإيلام والعذابات عندما يجد نفسه أمام تعارض مجموعة من المضامين تخضع جميعها لبعد داره عن الحبيب ، فبعد أن كان يجد في النظر من بعد إلى الدار❖ وسيلة لتفريغ تراكم انفعالاته النفسية قد أصبح وقد بعدت داره ، وفي بعدها يكمن الكنه الحقيقي للإيلام :

يا دارَ " فوز " لقد أورثتني دَنَفـاً وزادني بُعْدُ داري عنكُمُ شَغَفـا

" يا فوزُ" كيف بكم والدارُ قد بي عنكمُ وخروجُ النفسِ قد أزِفا (٢٦)

فالعاشق الذي يسعى للحصول على درجة من التوافق النفسي يصطدم هنا بما يزعزع موازينه بالبعد المكانيّ ، ذلك أنَّ المكان بالنسبة للعذريّ يحمل خاصية مثالية ساعدت جمالية اللغة العذريّة ذات المخزون الدلالي على تحوّل " المكان المحسوس إلى مكان روحي ذي طابع قدسي " (٢٧) ، فبعد الدار يعمل على خلق سلسلة من الصراعات المريرة نتجت عنها علاقات تراكمية من الدنف والشغف وصولاً إلى خروج

النفس ، فهذه جملة من المشاعر المضطربة تبدأ بالبعد لتنتهي بخروج النفس من الجسد ، وهذه المرحلة التي تمثّل اختزالاً لقمة هرمية ، وفق المخطط :

البناء الهرمي للانفعالات النفسية

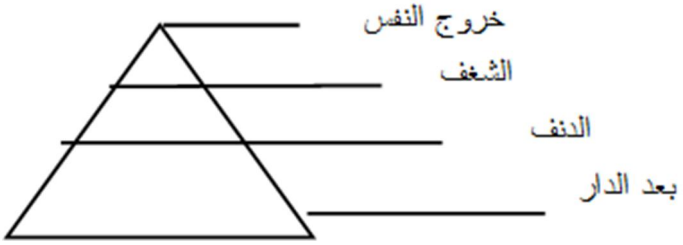

فبعد الدار يشكّل نقطة الارتكاز لهرم الانفعالات النفسية السلبية التي انتابت العاشق وعملت على هدم تنظيماته وتكيّفاته العاطفية ، فقرب الدار بالنسبة له كان يمثل التلاقي المفترض ، وضرباً من الترابطات الانتمائية ذلك " أنَّ الناس المجاورين لبعضهم في المكان هم قريبون من بعضهم بشكلٍ عام " [٢٨] .

فالقرب المكاني يسهم في تنمية العلاقات الإنسانية بين المتجاورين ، أمَّا البعد المكانيّ فهو يضعف تلك العلاقات ولا يسمح بالتواصل بين الحبيبين[٢٩] .

وبهذا البعد المكانيّ (بعد الدار) إنحال الحبُّ من شعور حامل لانعكاسات التوافق والانسجام والتكيّف التلقائي إلى شعور مستغلق تتموقع ضمنه امتدادات الألم والعذاب ، يخالطها إحساسات تعارضية متمثّلة بزيادة الشغف ، فالبعد داعية لزيادة الذخيرة العاطفية لدى العاشق بخلق الشوق الذي يمثّل مرحلة ما قبل النهاية (خروج النفس) .

ولعلَّ الوضع المتأزّم الذي يعيشه العاشق تحت تأثير استراتيجية بعد الدار حمله على اجتراح خطاب تجريديّ مع (دار فوز) ، فهو يوجّه خطاب تأنيب وعتاب لهذه الدار عمّا قدَّمته له من مضامين عاطفية مضطربة ومتحفِّظة زادها توتراً بعد داره ، فيحوّل خطابه إلى الشكوى من داره التي زادت ما به عندما باعدت مسافات التواصل ، وبذا أخذت الدار وظيفتين متناقضتين ، فهي بما تحمل من أبعاد دلالية (المؤثِّر) الذي أورثه الدنف ، وهي ـــ وفقاً لمبدأ البحث عن التوافق النفسي ـــ الأنيس الذي يسمع شكواه من داره التي عملت على قطع العوامل الترابطية المفترضة ، فهو يعمل على استنطاق الموجودات مخاطباً (دار فوز) إيحاءً منه بالبعد المكاني .

وهكذا يعمل العاشق أحياناً على استدعاء وتطبيق مفاهيم البعد ظاهرياً لعلَّ هذه المفاهيم بتفاعلها المتناقض تكون مدعاة للتوافق والاستقرار النفسي ، وهذا المسلك من البعد قد يصدر أحياناً عن وعي غير متبصِّر بآليات العاطفة فيكون بذلك داعية لتولّد تجلّيات قتل الاستقرار النفسيّ بدلاً من التوافق .

وقد يحمل العاشق في بعض الأحيان فكراً مضاداً ذا توغل يوحي باستحضار تفاصيل صور نمطية مختلفة تترك انطباعاً لدى المتلقي المتأمل وذلك عندما يستدعي البعد بقصدية عالية تزيد من أفق التباين كقول العباس بن الأحنف :

سأطلُبُ بعدَ الدارِ عنكم لِتَقرَبوا وتَسكُبُ عينايَ الدموعَ لتَجمُدا (٣٠)

مما يزيد من التعارض والتباين في هذا البيت أن مسار التنازع الجدليّ فيه بين ثنائية (القريب و البعيد) ينطوي تحت مؤثرات مختلفة منها :

- قد يكون طلب البعد إجراءً احترازياً من الأنظمة الرقابية مما يدعو إلى التصادم ما بين طلب البعد والرغبة في القرب ، فيصدر طلب البعد عن وعي بالمؤثرات الحقيقية (سلطة الرقابة) مما يستدعي القرب الروحي المؤكد قطعاً بفعل روحانية العاطفة العذريّة ، فما طلب بعد الدار إلا بتأثير فاعلية الرؤى التظاهرية ويبقى في الحقيقة عبارة عن قوى مضمحلة روحياً .

فمحورية الصراع وفق هذه القراءة هي امتداد لمواجهة الرقيب غير أنَّ هذا المنجز الدفاعي قد ينسحب على استحكام النزعة التعذيبية ، فعلى الرغم مما تمتاز به العاطفة العذريّة من ترابطات روحية متماسكة فإنَّ المستويات النفسية لم تأمن من التعذيب في ظلِّ (طلب بعد الدار) فبتداخل كينونة البعد والقرب تنساق النزعات التعذيبية إلى الذات ، ذلك أنَّ البعد وإنْ كان نهجاً ظاهرياً لتمويه الرقيب فإنَّ له شأنية انعكاسية على الذات ترجمت بشدة انسكاب الدموع .

- ويمكن أن يكون التعارض الجدليّ في هذا البيت ضرباً من التعذيب الصادر عن تفاعل مجموعة من الأنظمة الذاتية مثل الانكسار أو الإحباطات أو التخاصم مع الذات ، فيصدر العذاب في إطار تشابك جملة من العناصر المدعومة بمقدرات شعورية أولا شعورية . إذ يعمل العاشق على تعذيب الذات المفعمة بالحب عن وعي وعن غير وعي حتى يصل إلى المرحلة التي يمتزج فيها العذاب بالاستعذاب ، فنراه يأنس بالأذى الذي يلحقه من تجربته ، فهو يطلب البعد لتعذيب ذاته لما رآه من ازدياد الهوى كلَّما اشتد البعاد وبالبعاد يشتدّ العذاب ، فالأنس بالعذاب من جوهر التجربة العاطفية❖ فهو " تنفيس عن طاقة مضطرمة نتيجة عنف التجربة وشدة انفعالها ، وهذا التنفيس تجسيد لانصهار الشاعر في تجربة الحبِّ " (٣١) .

بل إنَّ أحسن أيام الهوى - برأي العباس بن الأحنف - اليوم الذي يروَّع فيه العاشق بالهجران والبعاد والعتب :

وأحسنُ أيامَ الهوى يومُك الذي تُرَوّعُ بالهجرانِ فيه و بالعتبِ (٣٢)

فتبدو الحالة هذه كسر للمتوقَّع عندما يصبح الهجر والعتاب من محاسن التجربة العاطفية .

وتأكيداً على تسرّب نزعة التعذيب إلى أشعار العباس بن الأحنف ما يتّضح في قوله :

سَمّاكِ لي قومٌ وقالوا إنّها لهي التي تشقى بها وتُكابِدُ

فجحدتهم ليكونَ غيركِ ظنّهم إنّي لَيعجبني المحبُّ الجاحدُ (٣٣)

وقوله : وقد وجدتُ أمرّ الحبِّ أحلاهُ(٣٤)

وقوله أيضاً :

إقبلـــوا ودّي فقـــد أهديتـــه ثم كافوني بصدٍّ فهو ودُّ(٣٥)

فهو عرضة لصراع نفسيّ سمح للجدلية الضديّة أن تعتمل في أفكاره وأشعاره ، فعندما يهدي الودّ للحبيبة آملاً القبول ، وبفعل الشعور المضطرب الذي يعانيه يحدد المكافأة عن الودِّ بالصدِّ فهو الودُّ بالنسبة له ، وبهذا ينطوي شعوره على ضرب من الرؤى المتعاكسة المتصادمة ، كما في الشكل الآتي :

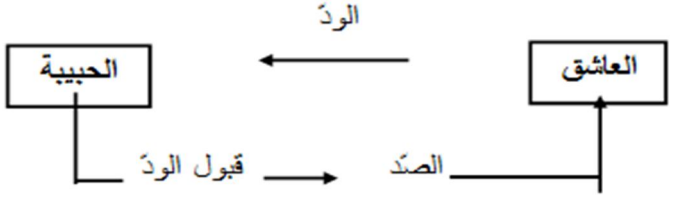

- وقد يعمل العاشق أحياناً على اختلاق البعد باعتباره نوعاً من الضغوط الابتزازية فيقوم بتغييب أجزاء من مضمونية العاطفة بالتزامه نهجاً استلابياً بأنْ يطلب البعد ويسلب القرب بما يولّد تواترات ونتاجات تصارعيّة ، فطلب البعد هو محور الابتزاز الذي تدور حوله مصدرية الصراع والتصادم لتوليد مستجدات المنتج العاطفي المتمثّلة بروحية الشوق الداعية للقرب ، ذلك أنَّ الشوق هو الحنين إلى البعيد وهو حركة نفسية لاإرادية تتجه نحو المحبوب (٣٦) .
- ويبدو أنَّ التصارع بين (القريب والبعيد) في هذا البيت من إمدادات الخيال المضطرب للبحث عن الاستقرار النفسيّ بفعل عنف وشدّة التجربة العاطفية ، فطلب البعد عبارة عن تجلّيات تأملية للوصول إلى درجة من التوافق المتمثّلة بقرب من يحبّ ، وبهذا البعد ستسكب عيناه الدموع إلى أن يتحقق القرب فتجمد الدموع من الفرح ، فهو يولّد النقيض من نقيضه فيلتمس القرب بالتباعد كما في قوله :

رأيتُكِ يدنيني إليكِ تباعُدي فباعدتُ نفسي لالتماس التقرُّبِ(٣٧)

بعد أن عجز في الحصول على القرب :

تقرّبتُ بالإحسانِ منها فزادني بعاداً فما أدري بما أتقرّبُ (٣٨)

غير أنَّ هذا التأمّل يبقى مجرد نزعات مضطربة قد يصدق وقد يعطي طروحات مغلوطة من البعد والجفاء .

- وقد يكون المسار الجدليّ (القريب / البعيد) يتحرّك في إطار الهروب من الواقع العاطفيّ المعاش بأنساقه المتنازعة القوى والمتصادمة الرؤى ، بعد أن ضاقت بالعاشق القدرة على مواجهة وتحدي

تلك الأنساق سواء كانت اجتماعية أم متمركزة في الذات ، فيبدو البعد أكثر وسيلة قابلة للنفوذ إلى وعي العاشق ؛ باعتباره أحد أشكال النشاط النفسي الانعكاسي .

٢- الجدليّة التكامليّة :

يمثّل هذا المحور الجدليّ تساوي (القريب والبعيد) في وحدة وظيفية متبادلة ، فقد يحدث أن يتماهى النقيض في نقيضه ضمن جدليّة تكامليّة حتى يتساوى الطرفان فيؤديان إلى نتيجة واحدة ، وذلك بانحسار البعد التصارعيّ بين (القريب والبعيد) فيتساوقان في وحدة تمازجيّة ، تأخذ فيها السياقات الندّية بمبدأ التكامل ، ويتّضح أنَّ هذا المحور أقل حضوراً في شعر العباس بن الأحنف ، وهو غالباً ما يجسّد لحظة الاستسلام والرضوخ لأزمة الواقع العاطفيّ لديه ، كقوله :

في القربِ تعذيبٌ وفي البعدِ حسرةٌ وما منهما إلاّ عليّ شديدُ (٣٩)

في هذا النص يصرّح الشاعر عن حقيقة بدت له من وراء تجربته العاطفية ، ومن صراعه بين ذاته المعذَّبة بالحب والآخر المعذِّب ، تتلخص هذه الحقيقة في أنَّ معطيات التجربة العاطفية التي آل إليها هي ذاتها من ناحية العذاب والألم في البعد والقرب ، ففي جوهر الحبِّ يبدو القرب تعذيب بسبب مختلف المؤثرات ، والبعد يورث الحسرة ، وكلا التعذيب والحسرة مشاعر تعكس تنظيمات عاطفية غير متّزنة تحمل دلالات تتموقع ضمن منظورات شدة الإيلام .

فما القرب والبعد إلّا عبارة عن اختزال جملة من المعاناة ، وفي هذا النص لم يقاس (القرب والبعد) على أساس منظومة التواصل المكاني حتى تبدو الفوارق التنازعية بينهما إنّما القياس بمقدار المعاناة ، وبذا يحدث توازي في المضامين وفق وحدة وظيفية ، فالقرب تحت ظروف معينة يؤدي وظيفة العذاب لأسباب مانعة من الوصل ، والبعد يؤدي وظيفة العذاب لأسباب مانعة من القرب ، وفق نهج من تبادل المسببات الوظيفيّة .

ومثل هذا البيت في التكامل السلبيّ قول ابن الأحنف :

ما عندهم فَرَجٌ في قرب دارِهُمُ ولا لنا منهُمُ في البعدِ أخبارُ (٤٠)

يتداخل النقيضان (القريب والبعيد) في هذا النص ضمن وحدة تكاملية سلبية بفعل تداخل معطياتهما ، فكلاهما ــ تحت ظروف معينة من تصارع القيم المختلفة ــ يؤدي إلى توليد معطيات سلبية تحول دون إشراقة أمل ، فلا القرب يحمل دلالات الفرج بانزياحه عن دلالته الحقيقية ، ولا البعد يسمح باستقطاب الأخبار .

ويبدو وجه التكامل في تساوي نتيجة النقيضين المتسرِّبة عن أزمة عاطفية ، وتقلبات نفسية عملت على خلق تغيّرات فكرية أزاحت وظيفة الجدليّة المتمثّلة بمركزية الالتقاء بين النقيضين من التصارع إلى التكامل .

وبذا يتساوى النقيضان باعتبارهما صدىً لانعكاسات نفسية وامتدادات تراكمية من التعذيب والصدّ وسيطرة اليأس ، وكلُّ هذه الامتدادات تعمل على ترحال الروح المعذَّبة في متاهات من الإحباطات والألم .

وقد يحدث أن يتكامل (القريب والبعيد) في حالة قريبة من الإيجاب منصهرة القوى بالواقع كما في البيت :

ولا اختلفت حالايَ في وصلِ حبلِها لأقطعهُ في القربِ منها وفي البعدِ (٤١)

يحمل هذا النص منظومة إجرائية عاطفية نابعة من سيطرة آليات الواقع ، فيضمّ القريب والبعيد في تمازج تكامليّ صادر عن وعي اللحظة العقلية المعضَّد باستشباع الواقع ، فتنمُّ علاقات السياق الندّيّ عن تداعيات تكاملية بعيداً عن النسق التصارعيّ .

وتفصح الرؤى الواعية المتحكِّمة بهذا النص عن بقاء واستمرار الحبّ ووصل حبل المودَّة في القرب والبعد ، دون اعتبار للفرضيات والقيود المكانية ، ويبدو أنَّ اللحظة الإيجابية هي التي عملت على تكامل النقيضين وانحسار التصارع ، وهذا النص يعكس مدى اشتغالات الذات العاشقة على الواقع الإيجابي الذي عمل على تفعيل دور الوعي ونقاء الفكر من التأزّم النفسيّ والابتزاز العاطفيّ .

وعلى هذا النحو من التصارع والتكامل تسير جدلية (القريب ، البعيد) في شعر العباس بن الأحنف بصراعاتها المتواترة مرتبطة بروح العاطفة العذريّة التي أكسبتها خصوصية وتفرّد ميّزتها عن غيرها ، حتى بدت تجربة روحية فكرية وفنية يتنامى فيها الصراع والتكامل ضمن توظيف عكسي أطَّرَ مجريات العاطفة بمضامين فكرية ، تستشرف رؤىً ومقاربات فلسفية مستمدة من ثوابت العمق الدلاليّ لروح العاطفة العذريّة ، وطبيعة الحبِّ الحقيقيّ وفق اشتغالات متعددة اعتمدت على الشعور حيناً وعلى اللاشعور حيناً آخر ، وللواقع ــ بما يحمل من فرضيات وقيود ــ دورٌ فعّال في تأزيم وانفراج لحظات التصارع والتكامل ، وتأجيج الأبعاد الانفعالية المختلفة والمتراوحة بين السلب والايجاب .

Abstract

The near-far controversy is an opposite controversy resulting from combining the near - far dichotomy .This results in creating conflicting context of the relation between the two sides. This controversy has a clear existence in the poetry of Al-Abas bin Al-Ahnef. It contributed in finding a conflictive movement according to a group of relations that are complex and of conflictive forces in formations of the pure emotional component. It represents the nearness of the self to the beloved and the farness from him in the circle of the spatial and temporal nearness and farness. This

draws a context to the emotional feeling by intellectual contents that elicit visions and philosophical approach deepening the artistic and aesthetic structure of the text .

The near-far controversy in the poetry of Al-Abas bin Al-Ahnef revolves around two points :

- conflictive controversy that represents an opposite track through conflicting relation between the far and the near . Thus the near sounds

Far and the far sounds near according to courses submitted to different effects , the most prominent of them is the supervisory domination which is type of the imposed social values domination in a way that makes the pure poet thinking have a number of conflicting collapses that makes that thinking in danger of two conflicting pictures : one is an obvious picture of silence and abandon , with the self being loaded with farness senses out of silence.

And an internal picture loaded with senses of compassion depth out of longing and spiritual nearness.

The absolute presence of seems a second factor in making the conflictive controversy between the near and the far . If the beloved is gone spatially, he is present absolutely through clarifications of the unconsciousness . Starting from his loving faith in the eternal belongingness that is rooted in the self for the other .

This controversy may result from searching means of self correspondence .Thus, the lover tends , in difficult circumstances of compassionate crisis , to find corresponding relations between the near and the far in a context of mediations and disturbed conflicts that might be true or give distorted visions that increase compassionate conflict.

- The other point is the integrated controversy , that is the least present , where the near and the far get equal in a mutual functional unit in which the conflicting farness decreases and the contexts take the match by the principle of integration . This often represents the moment of surrender to the crisis of emotional reality.

هوامش البحث

١. الثنائيات الضديّة ، دراسات في الشعر العربي القديم ، د. سمر الديوب : ٥ .
٢. ينظر : جدلية أبي تمّام ، عبد الكريم اليافي : ١٥ .
٣. يوسف الخطيب ذاكرة الأرض ، ذاكرة النار ، ناهض حسن : ٣٨ .
٤. ينظر : الثنائيات المتضادة في شعر الصعاليك والفتّاك ، مي وليم عزيز : ١٩ .
٥. الحبُّ عند العرب ، إعداد المكتب العالمي للبحوث : ٧ .
٦. الثنائيات الضديّة ، دراسات في الشعر العربي القديم : ١٦ .
٧. ينظر : الشعر العذريّ في ضوء النقد العربي الحديث ، محمد بلوحي : ٩٨ .
٨. ديوان العباس بن الأحنف ، عاتكة الخزرجيّ : ٢٣٨ .
٩. طوق الحمامة ، ابن حزم الأندلسيّ : ٦٧ .
١٠. ديوانه : ٢٣٩ .
١١. نفسه : ١٥٣ .
١٢. نفسه : ١٣٣ .
١٣. نفسه : ٧٤ .
١٤. نفسه : ٩ .

١٥. نفسه : ٣٩ .

١٦. العزلة والمجتمع ، نيقولاي برديائف : ١٥١ . يقول مصطفى صادق الرافعي : لا يصلح الحب بين اثنين إلا اذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر يا " أنا " . السحاب الأحمر ، مصطفى صادق الرافعي : ٢٢ .

١٧. ينظر : الشعر العذريّ (في ضوء النقد العربي الحديث) : ٦٤ .

١٨. ديوانه : ١٢٥ .

١٩. نفسه : ٢٧٦ .

٢٠. نفسه : ٦٢ .

٢١. نفسه : ١٠٤ .

٢٢. نفسه : ٥ .

٢٣. الغزل العذريّ ، دراسة في الحبّ المقموع ، يوسف اليوسف : ١٧ .

٢٤. ديوانه : ١٢٢ .

٢٥. نفسه : ٣٢ .

❖البيت صفحة : ٨ من البحث .

٢٦. ديوانه : ١٨١ .

٢٧. الشعر العذريّ (في ضوء النقد العربي الحديث) : ٦٦ .

٢٨. علم النفس الضمني ، روبين فالتشر ، دانيل وينجر : ٢٦٢ .

٢٩. الانتماء في الشعر الجاهلي ، د. فاروق أحمد أسليم : ٢٠١ .

٣٠. الديوان : ١٠٦ .

❖يذهب بعض الدارسين إلى تعريف الحبّ بأنّهُ " أن تتعذب بمن تحب وأن يعذبك من تحب ". أدباؤنا والحبّ ، فتحي الأبياري :٧.

٣١. رماد الشعر، د. عبد الكريم راضي جعفر: ٢٤ .ولعلّ هذه النزعة التعذيبية أكثر ما تكون في الحبّ العذريّ الذي يمثّل حالة متغلغلة في نفس العاشق " تتبين في ولعه بسقمه وهزاله وحرمانه وتلذذه بألمه وشقائه وتعاسته واستمتاعه بحرقة الشوق الذي لا أمل في إشباعه ". الحبّ العذريّ ، سليمان موسى :١٠٣ .

٣٢. الديوان : ٦٢ .

٣٣.نفسه : ٨١ .

٣٤. نفسه : ٢٨٥ .

٣٥. نفسه : ١٠٣ .

٣٦. ينظر : الثنائيات الضديّة ، دراسات في الشعر العربي القديم : ١٠٧ .

٣٧.الديوان : ٥٩ .

٣٨.نفسه : ٥٩ .

٣٩. نفسه : ٩٧ .

٤٠. نفسه : ١١٠ .

٤١. نفسه : ٣٢ .

قائمة المصادر والمراجع

١- أدباؤنا والحبّ ، فتحي الأبياري ، سلسلة ثقافية شهرية ، دار المعارف ، ١٩٩٥ .

٢- الانتماء في الشعر الجاهليّ ، د. فاروق أحمد أسليم ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٨.

٣- الثنائيات الضديّة ، دراسات في الشعر العربي القديم ، د. سمر الديوب ،منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة ،دمشق ،٢٠٠٩.

٤- جدلية أبي تمام ، عبد الكريم اليافيّ ، دار الحرية للطباعة بغداد ، ١٩٨٠ .

٥- الحب العذريّ ، سليمان موسى ، منشورات دار مكتبة الحياة – لبنان ، ط٣ ، ١٩٦١.

٦- الحب عند العرب ، دراسة أدبية تاريخية ، إعداد المكتب العالمي للبحوث ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت- لبنان .

٧- رماد الشعر(دراسة في البنية الموضوعية والفنية للشعر الوجداني الحديث في العراق) ، د. عبد الكريم راضي جعفر، مطابع دار الشؤون العامة بغداد ، ط١٩٩٨،١.

٨- ديوان العباس بن الأحنف ،شرح وتحقيق :عاتكة الخزرجي ، مطبعة فضالة ،المحمدية المملكة المغربية ،١٩٧٧.

٩- السحاب الأحمر ، مصطفى صادق الرافعي ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ط٦ ، ١٩٥٥.

١٠- الشعر العذريّ (في ضوء النقد العربي الحديث) ، دراسة في النقد النقد ، محمد بلوحي ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٠م.

١١- طوق الحمامة في الألفة والالاف ، للإمام ابن حزم الأندلسي ، (ت ٤٥٦هـ) ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٧ .

١٢- العزلة والمجتمع ، نيقولالي برديائف ، ترجمة : فؤاد كامل عبد العزيز ، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ،١٩٦٠.

١٣- علم النفس الضمنيّ ، روبين فالتشر ، دانيل وينجر، ترجمة : عبد المجيد نشواتي ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨٨.

١٤- الغزل العذريّ دراسة في الحبّ المقموع ، يوسف اليوسف ، دار الحقائق – لبنان ط٢ ، ١٩٨٢.

١٥- يوسف الخطيب ، ذاكرة الأرض ، ذاكرة النار ، ناهض حسن ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٤.

الدوريات

١- الثنائيات المتضادّة في شعر الصعاليك والفتّاك إلى نهاية العصر الأموي ، مي وليم عزيز ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ،كلية الآداب ، ٢٠٠٨.